مباني الاستنباط الفقهي عند الإمام الصدر
(دراسة المباني الفقهية لمدرسة الشهيد الصدر)

تمهيد

إن دراسةً تنصب على فكر الشهيد محمد باقر الصدر لا شك أنها ستكون دراسة تخدم الإنسانية بنتائجها، مهما كانت تلك النتائج وعلى كل الأصعدة، وكثيرة هي الدراسات التي تناولت شخصيته بمزيد من التعمق وألقت الضوء على كثير من جوانب تلك الشخصية العظيمة ذات الأبعاد المختلفة التي كانت مثار اهتمام الكتّاب والباحثين. ويمكن القول إنه لم يترك الباحثون - ممن واكبوا تلك الحقبة الزمنية التي عاشها الصدر أو التي كانت بعد استشهاده - شيئاً إلا القليل من مجالات البحث والدراسة فيما يخص تلك الجوانب المتألقة من تلك الشخصية. ولكن كون الرجل موسوعة فكرية عظيمة؛ فمهما كتب لا يستوفي ذلك الفكر العملاق تمام الاستيفاء.

ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نستكشف جانباً من شخصيته الفكرية، ربما لم يحظ هذا الجانب كما حظيت به الجوانب الأخرى من البحث والتنقيب، يتمثل هذا الجانب في إبداعاته المنهجية التي رسمها لنفسه في طريق الفتوى، ونثير بعض النقاط المهمة حول أسلوبه في الاستنباط وطبيعة الطرق والأسس التي اختارها وتبناها في بناء وصياغة تلك الفتوى الفقهية.

وهو في الحقيقة محاولة جادة لاستقراء المنهج الذي اعتمده الشهيد الصدر في تشكيل الفتوى الشرعية، وسيكون هذا الاستقراء معتمداً على بحوثه في مجالات متنوعة وأهمها بحث الفقه والأصول.

وقد وجدنا هذا الموضوع من الأهمية بمكان، قادتنا نحو الكتابة عنه، وكان الذي يدفعنا إلى ذلك عدة أمور منها: إن الموضوع لم يكتب فيه كثيراً ولم يستوف، فربما تكون الكتابة عنه تشكل إسهاماً علمياً مفيداً للباحث، ومنها: إننا قد درسنا معظم أبحاث الشهيد الصدر من خلال حضورنا الشخصي سنوات متعددة عند أحد أفضل تلامذته وهو الفقيه السيد كاظم الحائري، وهذا الحضور كان موزعاً بين الفقه والأصول وبحوث أخلاقية وعقائدية مستمدة من فكر الصدر

رحمه الله. ومنها: قيامنا بتدريس أحد أبرز كتبه الأصولية - الحلقات الثلاث- وهذا ساهم كثيراً في مقاربتنا لبعض مبانيه الأصولية والفقهية.

وقد قسمنا البحث إلى مبحثين أساسيين؛ الأول: يتناول أهم الخصائص العامة لمنهجه الفقهي، تلك الخصائص التي شكلت بمجموعها مدرسة فكرية فقهية امتازت عن المدارس الأخرى. أما المبحث الثاني فخصصناه لاستعراض أهم المباني والآراء التي ساهمت في تشكيل الفتوى الفقهية عنده، فكانت هناك دراسة لبحوثه العلمية في الفقه والأصول والرجال واستقراء لأهم مبانيه، وقد حاولنا قدر الإمكان بيان بعض التطبيقات التي تمثل نتيجة تلك المباني والآراء؛ لبيان مدى تأثير تلك المباني في استخراج الفتوى.

المبحث الأول: الملامح العامة للمنهج الفقهي عند الصدر

نتناول في هذا الفصل ذكر أهم ملامح المنهج الفقهي عند الشهيد الصدر، فان لكل مدرسة ملامحها العامة التي ترسم وتشكل الخطوط العريضة لمدرسته الفقهية التي امتازت عن بقية المدارس الأخرى.

الخصائص العامة للمنهج

ويمكن إجمال الملامح والخصائص العامة للمنهج الفقهي عند الصدر ببعض النقاط التالية:

التنوع والشمول

١- هذا التنوع والشمول كان نتيجة لما يتمتع به الصدر من ذهنية موسوعية وقّادة. فقد اتسمت أبحاثه بالشمول والتوسع، فكان يعالج جميع الفروع المتصورة والتي يستطيع عقله أن ينالها في أي مسالة يتناولها في بحثه. فعلى صعيد الأصول تجلى ذلك التنوع والشمول بأبرز صوره في بعض بحوثه الأصولية - على سبيل المثال - كما في بحث مشكلة المقدمات المفوِّتة بلحاظ الأغراض التكوينية، وبحثه أنواع ما يُعرف بمصطلح الحكومة في أصول الفقه، وبحثه في الظهورات المحتملة في جملة (لا ضرر) الواردة في الحديث المشهور، وبحثه في ثمرة قاعدة التسامح في أدلة السنن المستفادة من أخبار (من بلغ). وفي بحثه الفقهي فقد تجلى ذلك التنوع والشمول في معظم بحوثه وربما بحثه الرائع في تحقيق نكات قاعدة الطهارة الوارد في المجلّد الثاني من البحوث يمثل المصداق الأبرز لذلك التنوع.